تتصف الديانة في بلاد وادي الرافدين بصفات مميزة، لعل من ابرزها ما يعرف بين المختصين بمبدأ الحيوية أي الاعتقاد بوجود قوى او ارواح كامنة في مظاهر الطبيعة وتجسيدها بهيئة الهة . فقد رأينا من خلال حديثنا عن معتقدات الانسان في عصور ما قبل التأريخ انه مارس بعض الطقوس التي كان يهدف من خلالها زيادة الخصب والتكاثر وضمان حصوله على صيد وافر . وفي مرحلة لاحقة وخاصة بعد ان توصل الانسان الى الزراعة وتدجين الحيوانات مما ادى الى ارتباطه بالارض اكثر من أي وقت مضى ، صار يرى بان هناك قوى فعالة في كل ما حوله من الظواهر الطبيعية والتي كان معظمها يشكل بالنسبة له تحديا واضحا في حياته اليومية ، وتتجلى خطورة الظواهرلأنسان تلك العصور خاصة في بلد رسوبي منبسط مثل بلاد سومر واكد تتغير فيه الظروف المناخية والطبيعية بشكل متطرف خلال فصول السنة ولذلك جسد الانسان تلك القوى الطبيعية بهيئة الهة خصها بالعبادة والتقديس .

وطبيعي ان تحظى السماء باهتمام الانسان مثل غيرها من الظواهر الكونية الاخرى .وقد اطلق السومريون اسم آن(AN)على اله السماء واعتبروه في المرتبة الاولى بين الالهة كلها وبقى كذلك في مختلف العصور من تاريخ العراق القديم .

هذا وقد اعتقد السومريون والبابليون بأن الكون كان يتألف بالاصل من السماء والارض متحدتين وانه بعد انفصالها عن بعضها تكون ما يعرف بالفضاء او الجو حيث تهب الرياح وتعصف الزوابع وتصوروه الها اطلقوا عليه اسم انليل بمعنى السيد الريح وتأتي الارض (في السومرية KI) في المرتبة الثالثة بعد السماء والارض وقد جسد العراقيون القدماء القوى الطبيعية الموجودة فيها بهيئة اله هو انكي أي سيد الارض غير ان هناك ظواهر كونية وطبيعية عديدة في السماء والاجواء والارض ففي السماء على سبيل المثال يلاحظ الانسان الشمس والقمر والكواكب .وفي الاجواء يلمع البرق ويدوي الرعد وتهب الرياح والعواصف . وفي الارض توجد الأنهار وتنمو النباتات والاشجار وتتكاثر الحيوانات .فجسم القوم كلا من هذه الظواهر بهيئة اله اعطوه اسماء وخلعوا عليه صفات مميزة

استمدت منه البلاد والعاصمة تسميتهما. ومثلما مجد البابليون الههم مردوخ فرفعوه الى مرتبة البطولة في قصة الخلقية البابلية ، فقد جعـل الآشوريون من الههم آشور البطل في قصة الصراع الالهي . وكانت مدينة آشور مركزا لعبادة الاله آشور حيث اقيم له معبد عرف بمعبد "اي – شارا" . وقد بلغ آشور درجة من التقديس عند الآشوريين بحيث ان اسمه صار يكتب في بعض الكتابات الآشورية قبل غيره من اسماء الالهة العظام مثل الاله آنو وانليل وانكي (ايا)، كما انه شبه على بعض المنحوتات باله العدل شمش حيـث يظهر وهو يحمل العصى والحلقة كما صور احيانا وهو يقف على بعض الحيوانات الاسطورية مثل الثنيـن والاسد ذي القرنين .

خلق الكون والانسان

الف السومريون والبابليون اساطير وقصصاً عديدة تتناول بصورة مباشرة او غير مباشرة موضوع خلق الكون وخلق الانسان ، وجاؤابهذا الخصوص بأفكار مهمة اعتمدتها كثير من الشعوب المعاصرة واللاحقة لهم كلا او جزا . ونذكر من هذه الاساطير على سبيل المثال الاسطورة السومرية الخاصة بكلكامش ورفيقه انكيدو حيث تحتوي مقدمتها ، رغم قصرها ، على معلومات في غاية الاهمية عن انفصال السماء عن الارض على يد الاله انليل بعد ان كانت كتلة واحدة .

والكون في السومرية (آن – كي AN-KI السماء والارض) يمكن تجزئته بموجب الكفر السومري الى جزئين ، سماوي ويتكون من السماء وفضاء فوقها (يعني في السومرية العلى) حيث تسكت الالهة السماوية . والاخر ارضي ويتكون من سطح الارض وفضاء تحتها يعرف بـ العالم السفلي حيث تعيش آلهة العالم السفلي وحيث يوجد الاموات . ويمكن القول على ضـوء المعلومات الواردة في هذه المقدمة لقصة كلكامش وانكيدو وعلى ضوء اساطير سومرية اخرى مثل اسطورة الحاشية والحنطة واسطورة خلق المعول ان هناك خمس نقاط اساسية عند السومريين بخصوص خلق الكون .

١ – في البدء كانت مياه البحر (في السومرية نمو NAMMU)
والارجح ان السومريين تصوروا ان المياه هذه كانت ازلية طالما لا يوجد ما يشير في النصوص المسمارية الى اصلها اومولدها .

٢ – من مياه البحر الازلية هذه ولد جبل كوني يمثل السماء والارض متحدتين السماء (في السومرية AN واعتبرت عنصرا مذكرا) ، والارض (KI عنصرا مؤنثا) .

٣ – نتيجة لاتحاد السماء والارض ولد اله الهواء انليل .

٤ – ان الاله انليل فصل السماء عن الارض فحصل ابوه آنو السماء وحمل هـو الارض . الارض .

٥ – بعد ان تم فصل السماء عن الارض وتم خلق الكواكب والنجوم ظهرت معالـم الحياة على الارض .

اما بالنسبة للبابليين في ان قصة الخلقية البابلية الموسومة « عندما كان في العلـــى » (اينوما ايلش) تعتبر على قدر كبير من الاهمية بالنسبة للموضـوع غير ان هذه القصة ، برغم تفاصيلها الكثيرة وطابعها المسرحي في عرض قصة التكوين ، لا تختلف في جوهرها كثيرا عن معتقدات السومريين التي جئنا على ذكرها قبل قليـــل .

هنا نجد ايضا انه لم يكن في البدء سوى المياه الأزلية ايسو (المياه العذبة ، مذكر) وتيامة (المياه المالحة ، مؤنث) وانه من امتزاجهما ولد الجيـــل الاول من الالهة ثم الثاني والثالث . . . وتتكاثر الالهة على هذا النحو ويصبح صخبها وضجيجها مدعاة لضجر ابيهم ابسو فيعقد العـزم على ابادة ابنائه . ولكن الالهة الحديثة تكتشف المكيدة فتقدم على قتلـه . وتحاول تيامة الانتقام لزوجها القتيل فتجند كـل ما لديها من قوى وارواح شريرة وفتاكة . وازاء ذلك تصاب الالهة بالذعر تجتمع لتدبر الامر . وبعد الاخذ والرد تعلن بالاجماع اختيار الامر مردوح ملكا عليها وبذلك تضعه امام مسؤولية الدفاع عنها وخوض حرب طاحنة ضد تيامة وجيوشها . وبموجب قصة الخلقية البابلية ، يقود مردوخ جيوشه ويخرج في نهاية الصراع منتصرا وذلك عندما يقتل تيامة ويشطر جسدها الى شطرين جعل من أولهما

٣ - انه خلق من اجل أن يفلح ويكدح في الارض لكي يريح الالهة من عناء العمل وليقدم لها الشراب والطعام .

٤ - انه خلق وقدر عليه الموت لأن الالهة احتفظت لنفسها بالخلود وجعلت الموت من نصيب البشر .

الموت والعالم السفلي :

اعتقد العراقيون بان الموت نهاية لكل انسان وان الخلود غير ممكن الا للالهة فالانسان مهما بلغ من قوة وجبروت فأنه سوف يلاقي حتفه اجلا ام عاجلا . ومامل‌حمة كلكامش التي سوف تأتي على تفاصيلها في موضع لاحق من هذا الكتاب ، الا تأكيدا واضحا على هذا المبدأ الذي آمن به سكان وادي الرافدين ايمانا عميقا . اذ سوف نرى كيف ان هذا البطل قد استسلم في نهاية المطاف الى القدر بعد ان فشل في الحصول على الخلود على الرغم مما كان يتمتع به من صفات خارقة لعل من ابرزها ان ثلي مادته من مادة الالهة .

لم يكن الموت في عقيدة العراقيين القدماء مطلقا وانما كان مجرد انفصال الروح عن الجسد حيث اعتقدوا بأنه بينما يستقر الجسد في القبر تنزل الروح الى عالم سفلي هو عالم الاموات حيث تبقى الى ابد الدهر ، وبتعبير آخر فأنهم لم يعتقدوا بوجود قيامة او رجعة بخلاف بعض الاديان الاخرى . وقد اكد الاقدمون على ضرورة الاعتناء بدفن جثة الميت وعلى ضرورة تقديم القرابين واقامة الشعائر على روحه وبعكسه فأن الروح سوف لا تشعر بالراحة في عالمها الآخر . ومن المعتقدات البارزة بخصوص الموت عند قدماء العراقيين انهم اكدوا على بقاء الصلة الوثيقة بين روح الميت في العالم السفلي وبين جسده في القبر . فبقاء الجسد مستقرا يجلب الاستقرار الى الروح اما نبش القبور وبعثرة عظام الموتى فكان مدعاة لاقلاق الروح وعذابها اذ يقول الملك الآشوري آشور بانيبال بهذا الخصوص انه نبش قبور الملوك العيلاميين واستخراج عظامهم كل ذلك لاحلال العذاب في ارواحهم واكد العراقيون القدماء على ضرورة دفن الميت وبعكسه فأن روح من لم تدفن جثته لا تعرف

موسم الربيع . واخيرا فقد كان العالم السفلي تحت حكم الالهة ايرشكيجال وزوجها نركال يساعدهما عدد من الالهة والشياطين . وسنجد مزيدا من الحديث عن العالم السفلي عند كلامنا عن الاسطورة الشهيرة المعروفة باسطورة نزول انانا (عشتار) الى العالم السفلي والتي تعتبر من المصادر الاساسية عن هذا الموضوع .

المعبد والكهنة :

كان للمعبد في بلاد وادي الرافدين دور كبير في مختلف المجالات من حياة الافراد . فبالاضافة الى كونه مركزا دينيا يتعبد فيه الناس فيقيمون الطقوس والشعائر والاحتفالات الدينية ، فأنه كان مركزا للقضاء يمارس فيه القضاة اعمالهم للحكم بين الناس . كما كان مركزا اقتصاديا مهما فهو بمثابة مصرف للايداعات والمداينات . ومعروف ان المعبد كان يمتلك مساحات واسعة من الاراضي التي كانت تعود بايرادات ضخمة ويشتغل فيها اعداد كبيرة من العمال والفلاحين وبالاضافة الى ذلك فقد لعب المعبد دورا بارزا في حركة التعليم وفي الحياة الفكرية والادبية وخير دليل على ذلك السجلات المكتشفة في معابد المدن المختلفة التي تضمنت بالاضافة الى النصوص الاقتصادية الخاصة باموال المعبد ، نماذج متنوعة من الادب والمعاجم اللغوية والمعارف على اختلاف انواعها .

ومن البديهي ان نفترض بان الفرد في العصور القديمة الاولى كان يتعبد في بيته قبل ان تنشأ فكرة اقامة المعابد ويعود اقدم المعابد المكتشفة في العراق القديم الى عصر العبيد حيث كان المعبد في اقدم اطواره عبارة عن حجرة صغيرة مشيدة باللبن وتحيطها ارض مربعة الشكل تقريبا ولا يزيد طول ضلعه على ثلاثة امتار فيها تجويف يعرف بهيكل المعبد . ولكن بمرور الزمن ونتيجة لتطور الاحوال الاجتماعية والاقتصادية فقد توسع المعبد في حجمه وازدادت مرافقه البنائية وتعقدت تقسيماته وظهر اتجاه واضح نحو التمييز بين اجزائه المفتوحة لاستقبال عامة الناس وتلك المخصصة للكهنة او تلك التي كان يقتصر دخولها على نوع معين فقط من الكهنة عرفوا بالمصطلح البابلي "أيرب – بيتي" (داخل المعبد) وهو الذي كان يسمح له بدخول كافة اجزاء المعبد .